الفَهمُ المَسيحِيُّ للإسلامِ
حَقيقتُهُ والعوَاملُ التي صاغَتهُ في العُصُورِ الوسطى

الدّكتور راجح إبراهيم السباتين

مُلَخَّص

يُعــالج هــذا البحثُ، الــذي يتكــوَّنُ مِن ســبعةِ مطــالبَ - وبشــيءٍ من التَّفصيل - أبرزَ العوامل التي صَـاغت فهمَ الكنيسة الغربيّة للإسـلام ورسَّـخت صورتَهُ في ذهنها. وهذهِ العواملُ هي: قصص العهد القـديم والجهـلُ بالإسـلام والخــوفُ من الإســلام والقصــصُ الخياليّة والأناشــيد الحماســيّة والمــوروث الشعبي المسيحي والحُجّاجُ المسـيحيّون والكنيسـةُ الإسـبانية وعُقـدةُ الأنبيـاء الكَذَبَةِ .

THE CHRISTIANT UNDERSTANDING OF ISLAM
ITS TRUTH & THE FACTORS THAT SHAPED IT

DR. RAJEH IBRAHIM MOHAMMAD ALSABATEEN

ABSTRACT

This research which consists of seven demands deals within some detail and analysis, the factors that made and shaped the occidental church's understanding of Islam. These factors are: Stories of old testament, Lack knowledge of Islam, Islam phobia, Fanciful stories, enthusiastic songs and folklore, Christian pilgrims, Spanish church and Complex of false Prophets.

مُقَدِّمَة

عَلَا نجمُ الكنيسة الكاثوليكية ولمَــعَ في العصــور الوســطى[1]، وأخذ نفوذُها في الازديـاد على ثَـرَى القـارة الأوروبية لدرجـةٍ ضـايقت الكثـيرين من الحُكَّام والملوك والأمراء. وكان أصـدق تعبـيرٍ عن هـذا التضـايق المصـادمات العديــدة الــتي شــهدتها "أوروبــا" بين السُّــلطات الزمانيّة (مؤسسة الحكم الدنيوي التي كان يتزعمها الملوك والأمراء) وبين السُّـلطات الدينيّة (مؤسسة الحكم الــرّوحي الــتي كــانت تتزعمها الكنيسة برئاسة البابــا). وقد كــانت المؤسسة الدينية تتدخَّلُ في معظم شؤون الناس، إن لم يكن فيها كلِّها، كيف لا وقد منحتْ لنفسـها حـقَّ غفـران الـذنوب، واستصـدرت صـكوكَ الغفـران[2] وفرضتْ الكتابَ المقدَّسَ باللغة اللاتينية التي كـان معظم النـاس لا يجيـدونها بل لا يعرفــون عنها شــيئاً. كما أنّها احتكــرت الحــقّ في فهم هــذا الكتّــاب وتفسيره، وابتدعت نظام محاكم التفتيش[3] لملاحقة كلّ مَن يخـالف تعليماتها وتشــريعاتها وقوانينها واتهمته بالهرطقة[4] والكُفــر. وفــوق ذلك فقد فرضت أســراراً وطقوســاً يُمنــعُ غيرُها من تفســيرها وتوضــيحها، وفرضت لنفســها سلطاناً وهيبةً في النفوس جعل لها جانباً كبيراً من الرّهبة في قلوب النــاس. وقد ســـاعد على تقوية نفـــوذ الكنيسة الغربّية ضـــعفُ، بل بداية إنهيـــار، الإمبراطورية الرومانيّة الغربيّة وما تلا ذلك من صـــراعاتٍ وانقســـاماتٍ في البلدان والممالك التابعة لها، وكانت الكنيسة الكاثوليكيّة أكبر المستفيدين من ذلك حيث استقلّت بتعـيين البـابوات عن طريق المجـامع الكنسـية وليس عن طريق الأباطرة، كما كان الحال سابقاً، وهذا بحدِّ ذاته قـوَّى سـلطان الكنيسة والبابا بوصـفه السـلطان الأعلى للمسـيحيين في العـالم كلّـه، وهم ملزَمـون بطاعته والخضـوع له ولسـلطاته الممنوحة له من الـربّ، وبما أن الحـاكم أو الملك أو الأمير الذي يحكم إحدى البلدان في أوروبا مسيحيٌ فإنه ومن كلِّ بُدٍّ بحاجةٍ لمباركة ودعم وتأييد الكنيسة لحكمه وإضفاء صفة الشرعيّة عليـه. وقد تعـدّى الأمـرُ هـذه الحـدود؛ ففي مقابل تمتُّع الكنيسة بحق الغفـران (غفـران ذنـوب النـاس ومعاصـيهم) فقد وهبت لنفسـها حـقَّ الحرمـان[5]، "وقد أيـدت

القوانين المدنية عقوبة الحرمان الكنسـي، فسـلبت المحـروم حقوقه المدنية في وظائف الدولة وصادرت أملاكـه، وحرمته من الـرتب ونحوهـا. وقد يُصـدر البابا قرار الحرمان ضـدَّ أمّـةٍ كاملـةٍ، وعندئذ تغلق كنائسـها ويمنع الـزواج بين أهلهــا، ولا تبــاركُ الكنيسة دفن موتاها ..."[6]. ولعــلَّ ممارسة الكنيسة لهــذا الحرمان، يدلُّ بكل صراحةٍ ووضوح على نوعيّة النفـوذ والسُّـلطة الـتي كـانت الكنيسة تمارســها وتتمتّـعُ بهــا، ويشــهد على ذلك ما أعلنه البابا "غريغــوري السابع": "إنَّ الكنيسة هي صاحبةُ السيادة في العالم كلّه، تســتمدُ نفوذها من الله مباشرةً، وتمدُّ هي ملوك الأرض وأمراءها بالنفوذ، وإنّ البابا له مركزٌ فــذٌّ في العـالم، فهو الـذي يـولّي الأسـاقفة ويخلعهم، وله الحق في خلع الأبـاطرة لأنه سيدهم الذي لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون"[7].

كما يشــهد على ذلك بيــان البابا "نيكـولاس الأول" ... "إن البابا ممثّــلُ الله على ظهر الأرض، يجب أن تكــون له الســيادة العليا والســلطان الأعظم على جميع المسيحيين حكّاماً كانوا أو محكومين"[8].

ولئن كان هذا حال الكنيسة وبابواتها مع الحكّام والملـوك فمن السَّــهل علينا أن نتصوّر حالها مع المحكومين من الشعوب والرعيّة ... من الســهل أن نفهم الآن أنّ أيَّ رأيٍ كانت الكنيسةُ تتبنَّاه، فإنه يصبحُ، وبصـورةٍ تلقائيّـةٍ، رأيـاً يجبُ على أتباعها ورعاياها أن يتبنّـوه، وأنّ أيَّ موقــفٍ تتخــذه الكنيســةُ تجــاه حدثٍ مُعيَّنٍ فإنّه يصبحُ، وبصورةٍ تلقائيّةٍ كـذلك، موقفـاً لجميع أتباعها ورعاياها ... ويبرزُ في معرض الحديث عن هـذه المواقف موقـفُ الكنيسة من الإسـلام ونبوّةِ محمد ، وخصوصاً إن تـذكّرنا أن وصـول الإسـلام إلى القـارة الأوروبية آنذاك لم يكن مجرد حدثٍ بارزٍ بل كان الحدثَ الأبرزَ والأهمَّ في ذلك الوقت، كما أنّ الحضـارة الإسـلامية كـانت في عصـرها الـذهبي وأوج قوّتها ومجـدها، بينما كانت القارة الأوروبية وكنيستها العجوز غارقةً في عصرٍ حمل اسم عصر الظلمات أو العصور الوسطى[*].

هنالك مجموعــةٌ من العوامل كــانت قد تضــافرت وتجمَّعت لتشــكّل وتصوغ كيفيّة فهم الكنيسة الغربية للإسلام، وهو الفهمُ الذي ما زالت الكنيسة

الغربية في روما تتبناه إلى وقتنا الحاضر، وتـرفض أن تُـدخل على جـوهره أيَّ تغييرٍ حقيقيٍ. ونشير هنا إلى أنّ عوامل فهم الكنيسة الغربية للإسلام وصياغة صورته في ذهنها إنما هي عوامل متباينةٌ مختلفـةٌ، على مصـدريّتها العشـرات من علامات الاستفهام والتعجب. وأبرز هذه العوامل هي قصص العهد القديم، ودور الحجّـاج المسـيحيين العائـدين من بيت المقـدس (أورشـليم)، وقِصَـصُ الخيـال والمـوروث الشـعبي، ويضـاف إلى تلك العوامل مسـاهمات الكنيسة الإسبانيّة ومساهمات الرهبان في التحريض على الإسلام والمسلمين. أمّا أهمُّ هــذه العوامل وأبرزها على الإطلاق فكــان العهد القــديم والجهل بالإســلام والخوف منه. وهو ما ستكشف عنه المطالبة البحثيّة القادمة.

المطلب الأول

قِصَصُ العَهدِ القَديم

شهدت العصور الوسطى انكباباً كبـيراً من النـاس على قـراءة الكتـاب المقدّس ومحاولة فهمه وتفسير الأمور من خلاله؛ فَمِنَ الناس من كان يقرؤه ليُسيِّر حياته بمقتضى تعليماته وأوامره، ومنهم من كان يقرؤه لمعرفة أصــول المسلمين - أو السـرازانيين أو السراسـنة، كما كـانوا يُسـمَّون في أوروبا في العصور الوسطى - وسـلالاتهم ومكـانهم بين شـعوب العـالم، ومنهم من كـان يقرأ هـذا الكتـاب ليحـاول من خلاله فهم ما سـيحدث في المسـتقبل[9]. وهـذا الانكباب على قراءة الكتـاب المقـدّس (بعهديه القـديم والجديـد) يرجع ــ كما يرى سوذرن ـ إلى "أنَّ الكتاب المقـدّس كـان الأداة الفكريّة الوحيـدة الفعّالة في أوروبا في مطالع العصور الوسـطى، وما كـان بوسع المـؤلفين اللاتين أن يتجـاهلوا كلام العهد القـديم عن الماضي والمسـتقبل؛ مهما كـان هـذا الكلامُ غامضـاً أو غـير معقـول. وقد أسـهم الكتـابُ المقـدس في صـياغة مفهـوم الأوروبيين للعالم والتاريخ؛ وكـان هـؤلاء يُصـغون إليه ويتلمَّسـون في نصوصه حلولاً لمشـكلات العـالم في الماضي والحاضر والمسـتقبل؛ رغم أن سِـلاَلَهم

كانت تعود غالباً فارغةً. وما كان علماءُ الكتـاب المقـدّس ليجـدوا مهمـةً أولى في مجـال تخطيطهم للمسـتقبل من العـودة لدراسة المسـألة انطلاقـاً من نصوص الكتاب"[10].

أمّا عن قـراءة هـؤلاء للكتـاب المقـدس ومحـاولتهم للربط بين أحداثه ونصوصه من جهـةٍ وبين الـدين الإسـلامي الـذي يمثِّلُـهُ محمـدٌ، ـ كما يـذكر مؤرخوهم وكتبهم وكنائسهم ـ من جهةٍ أخرى، فإنما كـانت على الـدوام تـؤدي إلى ما يلي:

1. إنّ محمـداً وأتباعه العـرب هم أعقـابُ إسـماعيل، إبن الجارية المصـريّة هاجر.
2. إنَّ ظهور محمدٍ ودولته الإسلامية القوية وانتصارها إنما هو مقدّمةٌ وتمهيـدٌ لظهور المسيح الدجّال، وفي هذه إشارةٌ واضحةٌ لقرب نهاية الزمان.
3. إنّ محمداً ومملكته إنّما هما التفسير الحقيقي لمعنى الوحش الرابع الـذي ورد ذكره في سفر دانيال[11].

وقد علّق سـوذرن على مقاربة هـؤلاء للمسـألة الإسـلامية وربطها بنصوص العهد القديم "بأنها خاطئةٌ ومضحكةٌ ولكنها تركت آثـاراً ضـخمةً على تطوّر فهم أوروبا للإسلام"[12].

ولا يخفى على أيِّ قـارئٍ لمحـاولات الربط والتأكيد على أنّ محمـداً والعـرب هم أعقـابُ إسـماعيل ابن الجارية المصـرية ما في ذلك من محاولـةٍ للتحقير والحطِّ من شأن العـرب ونـبيِّهم، خصوصـاً إذا ما قرأنا الطريقة الـتي روت بها التوراةُ قصّة هاجر وابنها إسـماعيل، عليهما السّـلام. وتفاصـيل هـذه القصّـة موجـودةٌ في الإصـحاح السـادس عشر من سـفر التكـوين وألفاظها صريحةٌ في الحطِّ من شـأنها وشـأن ابنها الـذي وصـفته التـوراة بالوحشـيّ ـ حسب الفهم الكتابيّ لمعنى الكلمة ـ وأوحت بأنّه بدويٌ شرسٌ يرفع يده على الجميـع! وهكـذا انطلاقـاً من هـذا الربط كـان الأوروبيـون ينظـرون للإسـلام ورسوله في العصور الوسطى على أنّهم بـدو، شرسـون، بربريـون، مقـاتلون

أشداء، جاؤوا من الصحراء (ولنذكر أنَّ التـوراة تقـول إنّ إسـماعيل طُـرد إلى الصّحراء).

"ويعتبر المؤرخ "بدا" (أو بيدا) العالم الكبير بنصـوص الكتـاب المقـدّس في مطـالع العصـور الوسـطى أوّلَ من أدخل المسـلمين في تفسـير العهد القـديم، وصـار الأمر من بعـده بمثابة (كليشـية) يسـتعمله الجميع في شـروح الكتـــاب المقـــدّس وخارجها ... وقد ظلّت صـــورة "بـــدا" عن المســـلمين (السـرازانيين) سـائدةً لمـدّةٍ طويلـةٍ دون إضـافات ظـاهرة"[13]. لقد شـكّلت سـرعة إنتشـار الـدين الإسـلامي في العـالم في ذلك الـوقت، تمامـاً كما هي اليـوم، ظـاهرةً فريـدةً أثـارت الخـوف والقلق في قلـوب رجـال الكنيسة الغربيين، فعملوا جاهدين على محاربة هـذه الظـاهرة والحـدّ منها بـأن حـاكوا حولها الأكاذيب والقصص المشّوهة والخياليّة لصـدِّ النـاس عن مجـرد التفكـير في حقيقة هـذا الـدين وطبيعته فقـالوا بـأن الإسـلام من اخـتراع محمـدٍ وإنه استلهم هذا الدين من الشيطان. وكان هذا القـول نقطة البداية الـتي نسـجت حولها الخيوط، وبُنيت عليها الكثـير من الأسـاطير والافـتراءات على الإسـلام، ونشـروها بين النـاس وبخاصـةٍ في الأوسـاط المسـيحية، لإخـافتهم من هـذا الدين، ومنعهم من التحول عن دينهم واعتناق الإسـلام. و"من هـذه الأسـاطير زعمهم بأن محمداً [صلى الله عليه وسـلم] لم يمت في عـام 632م، كما هو معروف، وإنما في عام 666م، حتى ينطبق هذا الرقم على عدد الـوحش في سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح الثالث عشر، والـذي يقـول في أولـه: "ثم وقفتُ على رمل البحر فـــرأيتُ وحشـــاً طالعـــاً من البحر له ســـبعة رؤوسٍ وعشرة قرونٍ وعلى قرونه عشرةُ تيجـانٍ وعلى رؤوسه اسم تجـديف". وفي نهايته يقـول: [وأن لا يقـدر أحد أن يشـتري أو يـبيع إلا من له السـمة أو آسم الوحش أو عدد اسـمه، هنا الحكمـة. من له فهم فليحسب عـدد الـوحش فإنه عدد إنسانٍ، وعدده ستمائة وستة وستون][14].

"وقد حرّفـوا اسم هـذا الـوحش وأطلقـوا عليه "ماهاوند Mahound"، حتى يُصبحَ محمد [صلى الله عليه وسلم] في نظرهم تجسـيداً للشـيطان. إنَّ

اسم "ماهاوند" أو "ماهون Mahoun" و"ماهن Mahun" و"مـاهمت Mahmet" بالإنجليزية و"ماهون Mahon" بالفرنسية، و"ماتشميت Machmet" بالألمانيـة، كانت جميعها مرادفةً لكلمة عفريت وشيطان وصنم ابتكرها كُتَّابٌ مسـيحيون، صِيغت حولها قصصٌ أسطوريةٌ وورومانسيّةٌ في أوروبا إبان القرن الثاني عشر. وفي هذه الكتابات لم يُظهروا فيها محمـداً نبيـاً، وإنما صـوّروه على أنه صـنمٌ ووثن عبـده العـرب"[15]. وليس من قبيل المبالغة أن نؤكِّدَ هنا على أنّ قـدراً كافياً من العلم عن طبيعة وحقيقة الإسلام كان متـوفراً لـدى علمـاء العصـور الوسـطى وذلك من خلال تـوفُّر بعض ترجمـات القـرآن الكـريم والكثـير من الأحـاديث النبويّة والتـاريخ الإسـلامي، إلا أنّ هـؤلاء ومَن كـان وراءهم من رجـالات الكنيسة كـان يصـرّون على فهم الإسـلام والتعـرُّفِ عليه من خلال الكتاب المقدّس وبالذات العهد القديم منه، والذي كان ولا زال حتى السّـاعة، مُلهمـاً لهم في تـدوين أبـرز أحـداث تـاريخ العـالم! "ومن ذلك أنّهم فسّـروا أحداث زمـانهم طبقـاً لإشـاراتٍ وردت فيه [الكتـاب المقـدس]، فقد فسَّـروا، على سـبيل المثـال، ظهـور الإسـلام بأنه ظهـور نقيض المسـيح وعـدوّه. وقد وجدوا ما يثبتُ زعَمهم هذا في كتابهم المقدس، الـذي جـاء فيه "أمّا الحيـوانُ الرابع فتكون مملكةً رابعةً على الأرض مخالفـةً لسـائر الممالك فتأكل الأرض كلّها وتدوسها وتسحقها. والقرون العشرة من هذه المملكة هي عشرةُ ملـوكٍ يقومون، ويقوم بعدهم آخر، وهو مخـالف الأولين، ويُـذِلُّ ثلاثـةَ ملـوك، ويتكلم بكلامٍ ضـدَّ العليّ، ويبلي قديسي العلي، ويظن أنه يغـير الأوقـات والسَّـنة ويسلمون ليده إلى زمانٍ وأزمنة ونصف زمان"[16].

"وبمـوجب فكر العصر الوسـيط فـإنَّ الحيـوان الرابع يتمثل في الإمبراطورية الرومانية الـتي جـاءت بعد إمبراطوريـات: الأشـوريين والفـرس واليونان، وأن القرون العشرة للمملكة هم البرابرة الـذين غـزوا أوروبـا، ومن بعدهم جاء أتباعُ محمدٍ، ﷺ، الـذين اكتسـحوا اليونـان والفرنجة والقـوط، وأنهم مختلفون عن البقية، وأنهم غيَّروا الأوقات والقوانين"[17].

يُســتفاد ممّا ســبق أنَّ الكنيسة الغربيّة وافقت ودعمت محــاولات فهم الإسلام والتعرُّفِ عليه من خلال الكتاب المقـدّس وكـان خلاصة ما انتهت إليه تلك المحاولات أنَّ محمداً هو عدو المسـيح (أي أنه المسـيح الـدجّال) والـذي يعتـبرون قدومه وكـثرة انتصـاراته الدنيويّة دلالـةً على اقـتراب اليـوم الآخـر. والسؤال الذي يطرحُ نفسه الآن هل كان لهذه التفسيرات والتأويلات إنعكاسٌ حقيقيٌ أو أثرٌ ملموسٌ في أوروبا في تلك العصور الوسطى؟ الجـواب هو نعم بالتأكيد. فقد خرجت فتاوى هنا وهنـاك في أنحـاء أوروبا وبالـذات في إسـبانيا تشجّع على مسبّة وشتيمة هـذا "المحمـد" أو "المسـيح الـدجال" وكـانت تلك الفتاوى ـ والتي شجعها رجال من أمثال باول ألفاروس وأوجيليو (أو يولوجيو)[18] ـ بدايةً لتاريخٍ مُؤلمٍ محزنٍ مريرٍ من العلاقات بين المسلمين والمسـيحيين والغربيين. وقد بدأ ذلك بـالهجوم على شـخص الرسـول الكـريم ــ صـلى الله عليه وسلم ـ في إسبانيا، الـتي كـانت الأنـدلس المُسـلمة آنـذاك، "ففي عـام 850م خــرج راهب يــدعى "بــيرفكتوس" إلى السّــوق في قرطبــة، وكــانت عاصـمة دولة الأنـدلس المسـلمة، حيث لقيه بعضُ العـرب الـذين سـألوه أن يُفَاضل بين النـبي عيسى والنـبيّ محمـدٍ. وأدرك "بـيرفكتوس على الفـور أنَّ بالسـؤال شَـركاً نُصِـبَ لـه، لأنَّ قـانون الإمبراطورية الإسـلامية كـان يقضي بإعـدام مَن يسـبُّ النـبيّ محمـداً، ومن ثمَّ الـتزم الحـذر في إجابته أول الأمر ولكن زمامه أفلتَ فجــأةً فــانطلق يصب وابلاً من الشــتائم؛ فــزعم أن نــبيَّ الإسلام دجّالٌ ومولـعٌ بـالجنس بل وأنه المسـيح الـدجال نفسـه. وسـرعان ما ألقي به في السجن ... وعنـدما وصل "بـيرفكتوس" إلى السـجن، كـان يرتعد فرقـاً ورعبـاً، ولكن القاضي قـرَّرَ ألاّ يصـدر حكمـاً بإعدامـه، إذ رأى أنه كـان ضحية استفزاز ظالمٍ من المسلمين، ولم يلبث "بيرفكتوس" في غضون أيامٍ معدودةٍ، حتى أفلت زمامه من جديد فطفق يسب نبيّ الإسلام سباباً بذيئاً، لم يُطق القاضي إزاءه إلا تطـبيق القـانون بكل صـرامة. ونُفِّذَ حكم الإعـدام في الراهب، فإذا بجماعة من المسيحيين، الذين كـانوا ــ فيما يبـدو ــ من زعـانف المجتمع، يمزّقون أوصاله ويضفون هالةً من القداسة على رفـات "شـهيدهم"

وبعد أيام مَثُلَ راهبٌ آخر يـدعى "إسـحق" أمـام القاضي وأخذ يسـبّ محمـداً ودين محمـدٍ بحـرارةٍ جعلت القاضي يظنه مخمـوراً أو مختل العقـل، فصـفعه على وجهه ليعيـده إلى صـوابه، ولكنَّ إسـحق اسـتمرَّ في السـباب، فلم يجد القاضي بدّاً من وضع حدٍّ لمثل ذلك الانتهاك الصارخ للقانون"[19].

وقد اشتهرت هذه الحادثة في التاريخ المسيحي باسم ظـاهرة "شـهداء قُرطبـــة". وهـــذه الظـــاهرة إنما هي انعكـــاسٌ حقيقيٌ وواضـــحٌ للتـــأويلات والتفسيرات الكتابية التي سبق الحديث عنها، وكانت تلك التفسيرات المسَتَندَ الداعم لصيحات التهجُّم والشتم التي استهدفت شخصَ رسول الله، ، كيف لا "وقد صوّر الجهلُ والوهم للأذهان التي سيطر عليها الرعبُ أنّ محمـداً دجّـال كاذب، نصب نفسه نبياً ليخدع العـالم، وصـوَّر لها الجهـلُ أنه فاسق يسـتمرئ الفسقّ ويدفع أتباعه إلى محاكاته، وصوَّر لها لوهم أنه كان يجـبر النـاس على اعتناق عقيدته بحدّ السيف. وانتهت هذه الأوهام إلى القول بأن الإسـلام ليس ديناً مستقلاً منزلاً، بل بدعةٌ، أو صورة مُشَوَّهةٌ من صور المسـيحية، وأنه دينُ عنفٍ يـؤمن بالسـيف ويمجّد الحـرب والقتـل. وقد سـمع البعض أنبـاء شـهداء قرطبة في مناطق أخـرى من أوروبـا، بعد أن انطفـأت شـعلة الحركـة، ولكنَّ هذه الأنباء لم تحدث صدىً يُذَكر"[20].

وبمناســبة الحـــديث عن الجهل فـــإن ذلك ينقلنا للمطلب الثـــاني من مطالب وعوامل فهم الكنيسة الغربية للإسلام.

المطلب الثاني

الجَهلُ بالإسلامِ

يُعتَـبرُ الجهل بالإسـلام، في تقـديرنا، أبـرز وأهم العوامل الـتي صـاغت صورة الإسلام في ذهن الكنيسة الغربيّة حتى يومنا الحاضر، وليس هذا الجهل بالإسلام راجعاً لتواضع إمكانيات الكنيسة الغربية وعدم قـدرتها على بعث مَن يذهبون إلى الجزيرة العربية للتعرف على حقيقة دعوة الإسـلام، لا ولكن ذلك راجعٌ إلى عدم اهتمام هـذه الكنيسة والقـائمين عليها ــ في ذلك الـوقت على

الأقل ـ بمعرفة عقيدةٍ غير العقيدة الكاثوليكيّة، و"كـان الكثـيرُ مِن أتبـاع هـذه الكنيسة يعتقدون بأنَّ الدّين الجديد (أو المحمديّ كما كانوا يسـمّونه) إن كـان غير مسيحيٍ فإنه ومن كلِّ بُدٍّ سيكون وثنيـاً، ولمّا كـان المسـيحيون الكاثوليك يعبـدون مؤسس العقيـدة المسـيحية فإنّه ومن كـلِّ بُـدٍّ سـيكون المسـلمون يعبدون محمداً مؤسس العقيدة الإسلامية!!!"[21] ويشبه سوذرن الجهل النـاجم عن ضيق الأفق بأنه "نوعٌ من الجهلِ مثلُ ذلك الذي ينزل بالسجين؛ إنه يسمع ضجيجاً وأصواتاً عاليةً خـارج الأسـوار ويُحـاول بفكرته السـابقة عن المصـادر الممكنة للضـجيج والأصـوات أن يصـيغها بالشـكل المناسـب. ففي القـرون السابقة على العام 1100م كان المؤلِّفون الغربيـون فيما يتصل بالإسـلام في موقعٍ مشابهٍ، فهم لم يكونوا يعرفون شيئاً أبداً عن الإسلام بوصـفه دينـاً غـير المسيحية، لقد كـان الإسـلام بالنسـبة لهم رقمـاً في قائمة الأعـداء الطويلـة؛ أولئك الذين يتهددون المسيحية من كل ناحيـة. ولم يكن هـؤلاء على اسـتعدادٍ للتميـيز بين وثنية الأوروبـيين الشـماليين وتوحيد الإسـلام، ولم يكن الإسـلام يفترق بالنسبة لهم عن المانوية التي واجهتها المسيحيّةُ قديماً"[22].

وبالحــديث عن الجهل ودوره فقد أشــيع حــول النــبي محمــد، ، في القرون الوسطى قصصٌ تـدل بمنتهى الصـراحة على جهل الأوروبـيين بحقيقة الإسـلام ونبـوّة محمـدٍ، ومن ذلك قصّـةٌ خرافيـةٌ مؤدّاها "أنّ محمـداً كـان في البداية تلميــذاً للــراهب النســطوري ســرجيوس بحــيرا، تلقّى عنه بعض المعلومات الأساسية عن التوراة والإنجيـل، وبعد ذلك أعلن نفسه نبيـاً وكـوَّنَ عقيدةً خاصّةً به"[23]. ورأى لاهوتيّون كثيرون أنّ النـبي محمـداً هو مطـرانٌ أو بطريـرك في الأصـل؛ تشـاجر مع بطريق القسـطنطينية فشـكل هرطقـةً[*] انفصــلت تــدريجياً عن المســيحية الكاثوليكية الصــحيحة"[24]. ولم تكن هــذه الفرية وليـدةَ لحظـةٍ أو سـاعةٍ، بل الأمـرُ خلاف ذلك تمامـاً حيث وُلـدت هـذه الفرية في بيئةٍ ملائمةٍ ونمت وتطـورّت واتخـذت أشـكالاً متعـددةً في التعبـير عنها، إلا أنَّ هذه الأشكال بقيت تعبّرُ عن جـوهرٍ واحـدٍ، وهو أنَّ محمـداً تلميـذٌ لبحــيرا النســطوري" أخذ عنه هــذه الهرطقة المســيحية وأدخل عليها بعض

التعديلات والتطويرات والإضـافات وزعم أنها دينٌ جديـدٌ سـمّاه الإسـلام. وقد تَصَدَّى لودفيغ هاغمان[25] لرصد تطور هذه الفرية خلال فترة تقارب الأربعمائة سنةٍ، نلخّصها فيما يلي:

"في مرحلة بداية اللقاء بين الديانتين كـان الجهل مسـيطراً. وبعد ما لا يقل عن مئة عام من وفاة محمدٍ ذَكرَ يوحنَّا الدمشـقيُّ (وُلد في عـام 650م، وتوفي قبل عام 754م) أنّ الإسـلام يُعَـدُّ ضـرباً من الهرطقـات، لأن محمـداً تلقّى معلوماته على الخصوص من راهبٍ مسيحيٍّ آريوسي... وهذه الأطروحة الخاصة بتـأثر محمـدٍ بـراهبٍ مسـيحيٍ تظـلُّ المـرةَ بعد الأخـرى، تلقى التأييد والاحتضـان على مـدى التقليد الطويل الخـاص بالجـدل المـذهبي المعـادي للإسلام، سواء أكان ذا مصدرٍ بيزنطي أم لاتيني. ومن الممكن أن يكمن أصل تلك الأسـطورة عن معلمٍ مسـيحيٍ لمحمـدٍ كـان يوجهـه، في قصة بحـيرا[26] العائـدة إلى عصر الإسـلام الأول. وقـدَّم الحـافز إلى ذلك الاتهـام الـوارد في القرآن، الـذي يَـرِدُ فيه أنَّ محمـداً يتلقى تعليماته من بشـرٍ لا يسـتخدم اللغة العربية [في إشارةٍ منه للآية 103 من سـورة النحل "ولقد نعلمُ أنهم يقولـون إنّما يعلّمه بَشَرٌ، لسانُ الذي يُلحدون إليه أعجمي، وهذا لسان عـربي مـبين"] ففهموا الآية فهماً خاطئاً.

وفي الروايــات البيزنطية واللاتينية اللاحقة يصـبح الــراهب الأريوسي الـــذي ورد الحــديث عنه عند يوحنا الدمشـــقي: ســـرجيوس / ســـركيس ونسـطوريوس، وجيورجيـوس، ونيقـولاوس ويوحنا ... الخ، وهو يظهر أيضـاً نسـطورياً. كما يظهر من أصـحاب مـذهب الطبيعة الواحـدة، كما يظهر أيضـاً أريوسياً. بل يظهر أيضاً مرتداً، وحـتى مؤلِّفـاً للقـرآن. وفي هـذا الصـدد كـان يُنظرُ إليه، أكثر ما ينظـر، على أنه نسـطوري ويُصـوَّرُ على أنه مصـدرٌ غـامضٌ لمعلومات محمد.

ومع بداية الحـروب الصـليبية في عـام (1096م)، وانحسـارها، تـزداد معلومــات اللاتين عن الإســلام ومؤسِّسه ونصــادف أســطورة تــأثر محمّــدٍ بالمسيحية عن طريق راهبٍ من الهراطقة في أكثر الأشـكال تنوعـاً: فمحمـدٌ

يظهر ضحيةَ راهبٍ حـاول عبثـاً أن يطمح إلى منصب بطريـرك القـدس، وقد مارسَ تأثيره على محمد. ولأولِ مرةٍ في الغرب اللاتيني يذكر بطرس المبجَّل (1094م – 1156م)، رئيس دير كلوني ومُفتتِحُ الدراسات الإسـلامية الغربيـة، في رسالته إلى برنارد فون كليرفو (1153 – 1090) اسم راهبٍ نسطوريٍ، هو ســرجيوس، على أنه مصــدرٌ لمعلومــات محمد ويقــول إن ســرجيوس / ســركيس هـذا جـادل في ألوهية المسـيح وكسب محمـداً إلى جانبه في هـذا الاعتقاد.

وفي العصر الــذي تلا ذلك تختلط روايــاتٌ شــتّى: إذ يظهر ســرجيوس راهباً هرطوقياً، ومرتداً، ومغوياً لمحمدٍ[27]...

هكذا إذاً ولدت وتطوّرت هذه الفِريةُ السخيفة التي لا زالت قائمةً حتى السـاعة تحتضـنها وتـدعمها الكنيسة الغربية الـتي لا زالت حـتى هـذه اللحظة ترفضُ الاعتراف بالاسلام كدينٍ سماويٍ موحىً بـه، وذلك اسـتناداً إلى إنكارها لنبوّة محمدٍ، ، وطعنها المستمر في نبوّته التي يرونها مزعومةً مُـدَّعاةً!!! إنّه عداءٌ له تاريخ وإنها أحقادٌ متوارثـةٌ، وإنه لـتراثٌ من الجهل والتعصُّـبِ والعمى كان الهدف منه ولا زال الطعن في هذا الدين "وتصـويره على أنّه غـيرُ أصـيلٍ وغـيرُ عريـقٍ، بل على أنّه صـدىً لتوجيـهٍ مسـيحيٍ مطبـوعٍ بطـابع الهرطقـة، ووصمه، بذلك على أنّه تزييف"[28]. ولقد عمـدت الأوسـاطُ الكنسـيةُ الأوروبية إلى اختلاق هذه الفرية ـ التي لا زلنا نصـممُ على وصـفها بالسـخيفة ــ بعد أن عجـزت عن إقنـاع الشـعوب الأوروبية بـأنّ السِّـحَر وممارسـةَ محمـدٍ له هو السبب في سرعة انتشار الإسلام آنذاك، في ذات الوقت الذي كـان نـرى فيه التقلّص والانكماش للعالم المسيحي بسبب انتشـار الإسـلام في مجـال البحر الأبيض المتوسـط، وفتحه إسـبانيا وبعض البلـدان في الشـرق الأوروبي حتّى حـدود النّمسـا. ولمّا لم تلـقَ فريـةُ محمـدٍ () السّـاحر والمشـعوذ إقبـالاً عند الجمـــاهير في أوروبا تمّ اللجـــوء إلى القـــول بفرية الهرطقة النســـطورية المسيحيّة، خصوصـاً وأنّ هـذه الفرية كـان لها ما يبررّها في العقلية الكَنَسِـيّة الغربيّة؛ التي ترى أنّ محمداً () قد عاش في شبه جزيرة العرب التي ضمّت

العديد من المسيحيين الذين كانوا ينتمون "لمذهب الطبيعة الواحدة للمسـيح" والعديد من المسيحيين الذين يعتنقون المذهب النّسطوري المؤمن بطبيعـتين منفصلتين للمسيح، إلهيةٍ وبشريةٍ. وبالتـالي ــ كما يعتقـدون ــ فما الـذي يمنع الفرضيّة القائلة بإمكانية التقاء محمدٍ ببعضٍ من بقايا هؤلاء؟؟

"وكان محمد مؤسس الإسلام، أول الأمر، يشاطرُ أهـلَ بلـدهِ النظـرات العقدية القديمة المتوارثة من جيلٍ إلى جيـلٍ، حيث بـدا أن التصـورات الدينية اليهودية والمسيحية، كان من الجائز أن تكون معروفةً لديه نتيجـةً للمعطيـات المتوافرة في مسـقط رأسـه، مكـة، عن طريق الروايـة، ولو بصـورٍ مختلفـةٍ. فالقوافل، والتجار الذين كانوا يرتادون أشهر الأسـواق هنـاك، وكـذلك الأعيـاد التي كانت تقام في مسقط رأسه وتجـذب النـاس إليها سـنوياً من كل حـدبٍ وصـوبٍ، جعلت من مكة بوتقـةً لمختلف التصـورات الدينيـة، ومركـزاً تجاريـاً وروحيـاً بين سـورية في الشـمال واليمن في الجنـوب"[29]. هكـذا وعلى هـذا الأساس الفرضيّ التاريخيّ بُنيت فرية الهرطقة المسيحية التي قُذف بها خـيرُ البشر صلّى الله عليه وسلم .

المطلبُ الثالث

الخَوفُ مِن الإسلام

يرتبطُ الخوفُ من الشـيء بالجهل به ارتباطـاً وثيقـاً. وقد ارتبط خـوف المسيحيين الغربيين، بشكلٍ عامٍ، من الإسلام بجهلهم بحقيقتـه، الـتي حرصت الكنيسة الكاثوليكية على مــدار قــرونٍ مضت على حجبها عنهم، كما حرصت على عرضه لهم كما تفهمُه هي وكما تريده هي مشوَّهاً، مُرعِبـاً، زائفـاً، انتشر بحدّ السّيف وقوّة السـلاح دون أدنى درجـات الإقنـاع أو المحبّـة. ويمكن جمع أبرز عوامل خوف الكنيسة وأتباعها من الإسلام وحصرها فيما يلي:

1. إنّ وجود الإسلام كان قد أثار في العصـور الوسـطى الأوروبية إحساسـاتٍ عميقـةً بـالخوف والصـدمة وعـدم الرضا لـدى الكنيسة وإتباعهـا. كما أنّه أحدثَ موجاتٍ غير متناهيةٍ من الشعور بعـدم الأمـان، وتوقُّعِ الخطـر؛ ليس

لأنه كان خطَـراً حقيقيـاً فقـط؛ بل لتشـكيله عـاملاً قويـاً لا يمكن حسـبان أفعاله وردود أفعالـه: فالكنيسة الغربية ما كـانت تعـرفُ نوايا المسـلمين، كما لم يكن بوسعها تحديد أهداف الإسلام الحقيقية.

2. كـان مما أثـار حفيظة أوروبا المسـيحية على الإسـلام والمسـلمين، وولَّد الخوف عندهم من هذا الدين وأتباعه، "الانتشار السـريع للإسـلام، وتحـوُّلُ الكثيرين إليه واعتناقهم له دون إكراه، وذلك لبساطة تعاليمه، وسمو قيمه ودعوته إلى المســاواة بين جميع البشــر، بصــرف النظر عن أجناســهم وأعـراقهم وألـوان بشـرتهم وأوضـاعهم الاجتماعيـة، وأعطى الحق للعبيد لتحرير أنفسـهم بشـراء حـريتهم، في الـوقت الـذي كـان فيه نظـام العبيد سـارياً ومتفشّـياً في العـالم وبخاصة في أوروبـا، حيث غضَّـت المسـيحية الطرف عنه[30].

3. أُصيب الأوروبيون بـالرعب من الفتوحـات الإسـلامية، وخشـوا على مصـير الدولة البيزنطية التي اعتبروها خطَّهم الدفاعي الأول في مواجهة الشرق. صحيحٌ أن هـذه الدولة كـانت تحسب الحسـاب لنـدها الدولة الفارسـية، إلا أنها لم تكن تشعر بأنها تشكل خطراً على كيانها وعلى الشـعوب الأوروبية الخاضعة لنفوذها، وبخاصةٍ بعد أن ذهبت رياحها، واضمحلّت قوّتها ولم تكن ترى في يوم من الأيام أنها ستكون خطراً على عقيـدتها المسـيحية، ولكنَّ انـدفاع الجيـوش الإسـلامية، واجتيازها لحـدودها أشـعرها وللمـرة الأولى بالخطر الحقيقيّ، ما دام الهـدف الاسـتيلاء على أجـزاءٍ من إمبراطوريتهـا، ونَشْرَ عقيـدةٍ غـير عقيـدتها تعتبرها نقيضـةً لـدينها. وإذا كـانت هي تحـارب المذاهب المسيحية الأخرى المخالفة لها وتضطهد كل من يعتنقها أو يـؤمن بها، فكيف لا تخـاف من دينٍ جديـدٍ، جـاء، كما اعتقـدتْ، لينسخ المسـيحية كلَّها ويهدّدها بالزوال؟.

4. لقد ظن الغربيون بأن فتح العرب المسلمين لبلادهم ما هو إلا غزوة طارئة من أقـوامٍ حـلَّ بها القحـطُ، أو شـكت من مجاعـةٍ أو واجهت الشح في عيشـها فلم تجد وسـيلةً تخفف بلوتها إلاّ بالإغـارة على المنـاطق الزراعية

الخصبة. "ولكن سرعان ما خاب ظنهم بعد أن شاهدوا انطلاقة الإسلام يكتسح العوائق والعقبات التي تعترض طريقه، ورأوا المسلمين يُقبلون على الجهاد، لا طمعاً في المكاسب والمغانم، وإنما طلباً للشهادة، وفوزاً بالجنة التي وُعِدَ المجاهدون بها، بل لقد امتلأت قلوبهم بالإيمان ونفوسهم تشبّعت بالإسلام فزاد ذلك من مخاوفهم وحوّلها إلى قلقٍ مُستمرٍ دائم"[31].

5. العامل الحضاري والذي يتمثَّلُ في أنّ الإسلام حقّق خلال قرونه الأربعة الأولى تطوّراً ثقافياً وعلمياً وحضارياً لم تستطع أوروبا المسيحيّة تحقيقه إلا عبر عصورٍ متطاولةٍ من النّضوج البطيء والمتردد، "وقد أدّى ذلك كلُّه إلى تقرير الفرق الأساسيّ بين حضارة العالمين الإسلامي والغربي اللاتيني؛ وهو الفرق بين حضارةٍ نمت وتطورت ببطءٍ وعلى أمداءٍ طويلةٍ، وأخرى بلغت أوان النضج بسرعةٍ بالغةٍ. لقد كان الإسلام الوسيط يفيضُ ازدهاراً وثراءً في المجالات كلها؛ بينما كان الغرب في الحقب نفسها لا يملكُ غير ثقافة آباء الكنيسة، والشعراء الكلاسيكيين ومَنْ بعدهم، وثقافة مدرّسي اللاتين. وقد كانت أعمالُ هؤلاء بالغة الضخامة والتنظيم؛ لكنها في عالم العصور الوسطى المبكرة لم تترك آثاراً ضخمةً. ويبدو أنّ الأمر بالنسبة للغرب اليوم شديد الإيلام إذا ما قورن ما كان يملكه الإسلام في عالم الثقافة من أعمالٍ بما كانت تملكه أوروبا في العصر نفسه. وقد أدرك العلماء اللاتين في القرن الثاني عشر التفاوت الهائل بين ثقافة الغرب المسيحي والإسلام الوسيط، وشكَّل ذلك صدمةً قاسيةً لهم"[32].
6. العاملُ الدّيني، والذي يتمثَّلُ في قدوم دينٍ جديدٍ إلى أرض الكنيسة الغربية الكاثوليكية يناقضُ كلَّ ما تؤمنُ به وتحمله من عقائد، دينٍ تميَّزَ بسهولة تعالميه وتشريعاته على عكس الكنيسة الغربية وتشريعاتها، وببساطة عقيدته وموافقتها لكلٍّ من العقل والفطرة البشرية، على العكس من الكنيسة وعقيدتها. نعم لقد كان الإسلام وبما يحمله وما يمثّله أخطرَ عوامل الرهبة والإرهاق للكنيسة الغربيّة وعلى المستويات كُلِّها.

إن الكنيسة الكاثوليكيّة كانت ولا زالت مصمّمةً على عـدم التسـامح مع الإسـلام وأتباعه على الأرض الأوروبيــة، مُحجِمــةً عن دراســته وفهمه دراسة المحايد الـراغب في معرفة الحقيقـة، خوْفـاً على وجودها وكينونتها لأنّها تعلمُ على اليقين أنّه البديلُ الحضاري الوحيد الأنسب منها. حتى أنها لم تتسامح مع أولئك الذين يمدحون الإسلام من أتباعها، فكان حالها كحال الاسـتاذ صـامويل جونسـون الـذي قـال في إجابـةٍ له على سـؤال رجـلٍ أبـدى إعجابه بانفتـاح الفلاسفة القُدامى وتسامُحهم في مُحاوراتهم ومناظراتهم مع خصومهم: "كان بوسع هـؤلاء أن يُظهـروا تسـامُحاً في مُنـاظراتهم؛ لأنهم لم يكونـوا يأخـذون عقائدهم مأخذ الجدّ [....]. فالذي لا يخافُ أن يفقد شيئاً، يسـتطيع أن يسـتمع إلى خصمه بهدوء [...] أمّا ذلك الـذي يعتقد شـيئاً هو عزيـزٌ عليـه؛ فإنه يُحسُّ بالتوتُّر والألَم عندما يُواجه مُناظِراً ينقضُ ذلك. إنَّ الذي يُهاجم عقيـدتي؛ ينـالُ من ثقتي بنفسـي. وبالتـالي من هـدوئي النفسـيِّ، إنّ ذلك الـذي يـؤمن بـدينٍ مُوحىً يشعر بالغضب الشديد عندما يُواجه التشكيك في اعتقــاده. إذ في مثل هذه الحالة فإنّ الخصم إنما يسلبُهُ إلى حدٍّ ما الأرض التي يقفُ عليها"[33].

المطلبُ الرَّابعُ

القِصَصُ الخَيَاليَّةُ والأناشيدُ الحَمَاسيَّةُ والمَوروث الشَّعبيُّ المَسيحيُّ

كـان من الطـبيعي، ونتيجـةً لما سـبق ذكـره من توطُّدِ الجهل بالإسـلام والخوف منه في عُقول الأوروبيين من أبناء الغرب المسـيحي، شـيوعُ قصـصٍ خرافيةٍ وخياليةٍ تغذّي الشعور الشعبي العام تجاه الإسلام وتعبِّرُ عنه بأسـلوبها الخاص. وقد كانت هذه الموروثات الشعبية جـزءاً من تـاريخ الخيـال الأوروبي وشطحاته، ولم تكن بحالٍ من الأحوال جـزءاً من تـاريخ أوروبا الحقيقي الـذي دوَّن الوقـائع والأحـداث، وحَفِظها كما وقعتْ، وكما هي. وكـان من أبـرز ذلك أغنية رولان أو (أغنية عن رولان)[34]، وهـــــذه الأغنيّة (أو بالأصح الملحمة الشعبية) نظمها شاعر الكنيسة القسيس "كـونراد" قُبيـلَ الحـروب الصـليبية،

بمـدةٍ قليلـةٍ، وبالتحديد في عـام 1080م، فكـان لها تـأثير كبـير في إلهـاب العواطف العدائية في أفئدة الأوروبيين مما جعلهم يردّدونها في كل مناسبةٍ.

"لقد تُـرجمت أنشـودة رولان إلى سـائر اللغـات الأوروبيـة، فأصـبحت شائعةً في فرنسا وألمانيا وإيطاليا. وقد كـان لها من الـذيوع وبُعْـدِ الصـيت ما حمل كثيراً من نـحّاتي الهياكل على نحت تماثيل لرولان ولرفيقه أوليفيه على مداخل الكنائس الكبرى في مدن أوروبا المختلفة"[35].

ومن الجدير ذكره هنا أن أنشودة رولان الحربية نُظمت بمناسبة حـادث اعتداء وقع على مـؤخرة جيش الفرنجة الـذي كـان يقـوده الملك "شـارلمان" بنفسه ضد مسـلمي إسـبانيا، حين كـان هـذا الجيش عائـداً من الغـزوة عن طريق جبـال الـبرانس، حيثُ انقضَّ فريق من فرسـان العـرب البواسل على مؤخّرته التي كـانت بقيـادة رولان ابن أخ شـارلمان، فأبادوها عن بكـرة أبيهـا، فعمَّ الحــزن وانتشر بين جميع الفرسـان في أوروبا المسـيحية. وتصف هـذه الأنشودة نضال رولان وتفانيه في الدفاع عن المؤخرة واستبساله في مقاومة هجمـات أعدائه الهائلـة. وكـان من أبـرز ما اشـتملت عليه هـذه الأنشـودة وخصوصاً في الأبيات 2580 – 2591 ما يلي:

1. تصوير المسلمين من أعداء شارلمان ورولان في صـورة عابـدي الأصـنام، وهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هي "أبولو"[36] و"تيرفاجان (أو ووترفونيوس)[37] ومحمد (ﷺ)، وإن كـانوا على ذلـك، جنـوداً شـجعاناً، يسـعد المقاتل بمنابذتهم!!.
2. وصفُ المسـلمين بـأنهم "الشـعب الـذي لا يُـروى تعطشه لسـفك الـدماء، والـذي لعنه ربُّ السـماء... فهم كَفـرَةٌ وكلابٌ ... وخنـازير فجـرة ... وهم عبدة الأصنام التي لا حول لها ولا قوة ... الذين لا يسـتحقون إلا أن يُقتلـوا وتُطرح جثثهم في الخلاء، فهم إلى جهنم دون أدنى شكٍّ!!.
3. قـول الشـاعر المؤلِّف القس "كـونراد" عن الشـعب المسـلم: إنّ أولئك جميعاً دون استثناءٍ حزب الشيطان اللئـام، خسـروا الـدنيا والآخـرة، وحـلَّ

عليهم غضـبُ اللـه، فبطش بهم روحـاً وجسـداً، وكتب عليهم الخلـود في جهنم أبداً"[38]!!.

4. إن السـبب المباشر لهزيمة المسـلمين في هـذه المعركة على يد الملك المسيحي كان نتيجةً لسخطهم وحقدهم وكُفرهم، وأنهم لمَّا هُزموا سَحبوا أصنامهم من الكهف وحطّموا تمثالي "أبوللوـ و"وتروفونيوس"!!!

وقد علّق "أليكسي جوارفسـكي" على هـذه الملحمة الشـعبية الأوسع والأكـثر انتشـاراً في أوروبا آنـذاك قـائلاً[39]: "وللحقيقة يجب القـول: إنّ تلك الأساطير المختَلَقة تمثّل سخريةً مأساويّةً لأن النبيَّ محمداً الذي حـارب أكـثر من أيِّ مخلوقٍ آخر عبادةَ الأوثـان، والـذي حطَّم جميع أصـنام الكعبـة، يتحـول في تصوُّر المسـيحيين إلى صـنمٍ يؤلّهه أتباعُـه" الـذين يُطلقـون عليهم إزدراءً واحتقاراً لقب "عبيد سارة" أو "أبنـاء الجاريـة". ولقد شـهد على هـذه الفـترة السوداء التي شاعت فيها هـذه القصص والحكايـات عن الإسـلام والمسـلمين عددٌ لا بـأس به من كبـار المـؤرّخين والمُستشـرقين الأوروبـيين الـذين دوَّنـوا خلاصة هـذه القصص الشـعبية الـتي لا زالت عالقـةً في الـذهن الأوروبي إلى يومنا هذا. وقد جمع شهاداتهم الأسـتاذ المبـدع محمد عمـارة في كتابه الأخـير عن الفاتيكان والإسـلام ومهَّد لـذلك بـالقول[40]: "وبشـهادات علمـاء الغـرب، الـذين قـارنوا بين حقيقة الإسـلام وبين الصـورة البائسة والكريهة والشـوهاء التي صنعتها المسيحيةُ الغربية لهذا الإسلام ... فإنَّ الخيال الغـربيّ المسـيحيّ المـريض قد أطلق لنفسه العنـان في تشـويه صـورة الإسـلام ليشـحن العامّة والغوغاء في الحروب الصليبية الـتي شَـنَّتْهَا الكنيسة الغربية لإعـادة اختطـاف الشـــرق من التحرير الإســلامي". يشـــهد المستشـــرق الفرنسي "مكســـيم رودنسون" فيقول: "لقد حدث أنَّ الكُتّابَ اللاتين، الذين أخـذوا بين 1000م و 1140م على عاتقهم إشـباع حاجة الإنسـان العـامي، يوجهـون اهتمـامهم نحو حياة محمد، دون أيِّ اعتبارٍ للدقة، فـاطلقوا العنـان "لجهل الخيـال المنتصـر" فكان محمد ـ في عرفهم ــ: سـاحراً، هـدم الكنيسة في إفريقيا والشـرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسـية ... وكـان

محمد ـ في عرف تلك الملاحم ـ هو صنمهم الرئيسيّ، وكـان معظم الشـعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة السراسنة [البدو] وكانت تماثيله ـ حسب أقوالهم ـ تُصنعُ من موادّ غنيةٍ، وذات أحجام هائلة"[41]. وبشـهادة المستشـرق الإيطـالي "فرانشسـكو جـابرييلي" "فلقد كـانت العصـور الوسـطى الغربية تنظر إلى ظهور الإسلام وانتشاره باعتباره تمزُّقاً شيطانياً في صدر الكنيسة المسيحية، وانشـقاقاً مشـؤوماً قـام به شـعبٌ بربـريٌ"[42]. وبشـهادة المفكر الألمـاني "هربرت هيركومر" في دراسته عن صـور الإسـلام في الأدب الوسـيط "فـإن الأوروبيين ادّعوا أن رسول الإسلام كان كاردينـالاً كاثوليكيـاً، تجاهلته الكنيسة في انتخابـات البابـا، فقـام بتأسـيس طائفـةٍ مُلحـدةٍ في الشـرق انتقامـاً من الكنيسة، واعتبرت أوروبا المسيحية ـ في القرون الوسطى ـ محمـداً المرتـدَّ الأكـبر عن المسـيحية، الـذي يتحمَّلُ وزر انقسـام نصف البشـرية عن الديانة المسيحية"[43]. تقول المستشرقة الألمانية "زيغريد هونكة": "فلقد استقر في أذهان السواد الأعظم من الأوروبيين الازدراءُ الأحمـقُ الظـالم للعـرب، الـذي يَصمهم جهلاً وعدواناً بـأنهم "رعـاة المـاعز والأغنـام، الأجلاف، لابسو الخِـرق المُهلهلة ... وعبدة الشيطان، ومحضّـرو أرواح المـوتى، والسَّـحَرة، وأصـحاب التعاويذ وأعمال السـحر الأسـود، والـذين حـذقوا هـذا الفن، واسـتحوذ عليهم الشـــيطان، تحرســـهم فيـــالقُ من زبانيته من الشـــياطين ... وقد تربَّعَ على عرشـهم الـذهبي "ما هو مـد" "مخميـد" ــ وقد ركعت تحت أقدامه قـرابينُ بشـريةٌ يـذبحها أتباعه قربانـاً وزلفى إليه .. فهم الكفـرة الفجـرة، الـذين لا يدينون بالمسيح أو الله؛ لأنهم لم يعبدوه بعد .. فهم ليسوا سوى ديدان حقيرةٍ .. وسَفلة أوغاد .. أعداء الله .. وأعداء المسيح .. مستبيحو قبر المسيح"![44].

"لقد كانت مساهمةُ الكنيسة الغربيّة في تكريس الصورة السـوداء عن الإسلام كبيرةً فقد "صَوّرت الكنيسةُ الأوروبيةُ رسولَ الإسلام ساحراً كبيراً ... وصوَّرت "قرطبـة" في الأنـدلس على أنّها وطن عُبّـاد الشـيطان، المتوسّـلين بالموتى، الذين قدّموا لمحمدٍ الصـنم الـذهبيّ الـذي كـانت تحرسه عصـبةٌ من الشياطين! فبلاد الإسلام هي عـالم الخرافـات والأسـاطير وعبـدة الشـيطان،

والسحرة المتضرّعين إلى الشيطان ... بلاد الأضاحي البشـرية من أجل صـنم ذهبيٍ، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين، اسمه محمد"!!ـ[45].

لقد كانت هذه الصورة السوداء للإسـلام في الخيـال الشـعبي الأوروبي المسيحي تتوهجُ أحياناً وتخبو أحياناً أخرى. ولم تظهـر، ولم تجـرِ أيـةُ محاولـةٍ نقديةٍ موضوعيةٍ لفهم رسالة محمد، ﷺ، وتعاليم الإسـلام، بل على العكس من ذلك ظلَّت الحروبُ الصليبية حيّةً في أوروبا وعُزِّزت بالخوف من تصـاعد قـوة الإمبراطورية التركية في أثناء القرن الخامس عشر والقرن السـادس عشـر. ولقد خبت هذه الأساطيرُ الخيالية حيناً من الـدّهر، لكنَّ كُتَّاب مفكـري النهضة الأوروبية أحيوها واسـتعادوها، فقد صّـوروا محمـداً ﷺ بأنه ادّعى الألوهيـة، وأنه ماكر وساحر ومنجِّم وخادع. وعلى الرغم من زيـادة احتكـاك الغـرب بالشـرق عن طريق التجار والرحّالة والسُيَّاح الذين اختلطوا بالمسـلمين وتعرفـوا على الإسـلام، وشـاهدوا المسـلمين وهم يمارسـون عبـاداتهم ورأوا أعمـالهم على أرض الواقع، إلاّ أنّ هذا كلّه لم يغير من صورة الإسلام الشائنة التي رسـموها ونشروها في أوروبا. وظـلّ الأوروبيـون ينظـرون إلى المسـلمين نظـرةَ حقـدٍ وكُرهٍ وبُغضٍ وتحيُّزٍ.

وقد كـان للنـبي محمـدٍ، ﷺ، نصـيبٌ كبـيرٌ من افـتراءات وخيـالات هـذه القصص الشـــعبيّة نالته كلُّها بالـــذمّ والقـــدح والتّحامل على شخصه الكـــريم والرسالة السامية التي كان يدعو إليها، ومن المؤسف أنّ الكثير من المؤلِّفين الغربـيين ورثـوا هـذا القصص عن آبـائهم وأجـدادهم وصـاغوها في مؤلَّفـاتهم بأسلوبهم الخاص ودونوها في كتبهم (الحاقدة اللّاموضـوعيّة طبعـاً) فحفظوها من الزوال والإندثار. ولما توالت عليهم العصـور والأزمـان أصـبحت مؤلَّفـاتُهم هـذه مرجعـاً ومسـتَنَداً يرجـعُ إليه المتـأخرون من الأوروبـيين، وكـان ملخَّص التراث المدوَّن لهؤلاء عن النـبي، ﷺ، ما يلي: "محمـدٌ رجـلٌ مسـيحيُ الأصـل، تزوَّج أيماً ثريةً، وكـان مصـاباً بالصَّـرع. وتحـدّد هدفُـهُ بسـحق المسـيحية عن طريق اشتراع حُريّةٍ جنسيةٍ واسعةٍ. "وعلى أسـاسٍ من هـذه المعـالم القليلة (والمضلّلة) بنى الغربيون في القرن الثاني عشر بناءً ضخماً من الحكايـا. وقد

اعتاد المؤلِّفون اللاتينيون أن يطرحوا على أنفسهم أسئلةً عن محمدٍ الإنسان، وعن أسباب انتشار دعوته، ثم يُجيبون عليها بأنّه كان ساحراً استطاع بسحره وســـعةِ حيلته أن يقضي على الكنيسة في إفريقية والشـــرق، وأن يثبت دينه ويُغري الناس باتّباعه بحريةٍ جنسيةٍ أتاحها لمعتنقي دينه"[46].

وقد كان هـؤلاء المؤلِّفـون يأخـذون خلاصـات القصص الشـعبية والأدب الشعبي ويضمّنونها في كتبهم، وكـانوا يعـترفون بعـدم اسـتنادهم إلى مصـادرَ مكتوبةٍ أو موثوقةٍ فيما يكتبونه عن النـبيِّ محمـدٍ، ﷺ، ومن الأمثلة على هـؤلاء اللاهوتي الأوروبي الكبير "غيبرت نوغنت" الـذي ذكر بصـراحةٍ أنه لم يسـتطع الاستناد إلى مصادرَ مكتوبـةٍ عن النـبي ﷺ. وقـال إنّ ما يـذكره هو نتـاجُ الـرأي العام السائد، ولا يسـتطيع أن يحـدّد مـدى الصـحّة أو الخطأ في أخبـار الـرأي العامّ؛ لكنه يستطيع القول "إنّ الباحث له الحق في أن يتحدَّث بشـكلٍ سـلبيٍّ عن رجلٍ فاقت سـيئاته كـلَّ حـدٍّ معقـولٍ [يقصد رسـول الله صـلى الله عليه وسلم] وتقارير النصف الأول من القرن الثاني عشر تختلف من حيث الشكل؛ لكنها تسـتند بمجموعها إلى المبـدأ نفسه تقريبـاً: حكم الـرأي العـام، وصـورة الـرأي العـام. وما يـأتي بعد ذلك ليس غـير خيـالٍ محضٍ ومـريضٍ في أحيـانٍ كثيرة"[47]. ولعلَّ الكلمات السابقة تكتسبُ أهميةً بالغةً خصوصاً إذا ما تــذكّرنا أنّ "غيبرت نوغنت" هذا إنما كـان كـاتبَ أوَّلِ سـيرةٍ للنـبي محمد ﷺ في أوروبا الغربيّة في النّصف الأول من القرن الثاني عشر.

هكذا إذاً كانت خلاصة تصّورات هؤلاء عن رسول الله، ﷺ، **رجل فاقت سيّئاته كلَّ حدٍّ معقول!!!** ومن هنا يمكن لنا أن نفهم عبـارة سـوذرن عن صــورة محمــدٍ صــلى الله عليه وســلم في المخيّلة المســيحية الغربية "أما الخطوط الرئيسيّة للصورة فقد كانت نتاج مخيّلةٍ مُغرقةٍ في التــوهُّم وتسـويغ الذات"[48].

وفي ختــام الحــديث عن عامل القصص الخيالية والأناشــيد الحماســية والمــوروث الشــعبي ودوره في صــناعة صــورة الإســلام في ذهن الكنيسة الغربيّة، نذكّرُ بأنّ هذه الحكايات الشعبية كلها نشأت في البيئات نفسها، الـتي

انتشرت فيها الأقاصيصُ الخرافية عن النبي محمدٍ وعادات المسـلمين. وليس هنـاك شـكٌ في أنّ المُبتـدِعين والسـامعين لهـذه الحكايا كـانوا يعتقـدون أنها حقيقيّةٌ ويمكنُ التصرفُ على أساسٍ منها "ثم إنّ هذه الأقاصـيص الأسـطورية اكتسبت بمجرَّد ظهورها حياةً خاصَّـةً وطريق تطـورٍ خاصّـاً مسـتقلاً عن إرادة أوائل واضعيها. وجاء الشعر الشعبي الأوروبي ليردّد الصورة الخيالية المتكوِّنة عن الإسلام جيلاً بعد جيلٍ دون أن يطرأ عليها تعديلٌ ملحـوظٌ. وكـانت العامـةُ تنتظر من هـذه الشـخوص الشـعبية ـــ مثلما هو في الحكايا والمرويـات ـــ أن تتصرف بطريقةٍ معينةٍ؛ ولذلك لم يطرأ على النموذج الأول المعهود كبيرُ تغييرٍ يُمكنُ أن يُخِلّ بالصورة المنتظَرَة. وهكذا بقي الإسلام وبقي نبيـهُ عند الغـربيّ العاديّ مسـجونين في الصـورة الخيالية الأولى لعـدة قـرونٍ. وليس سـهلاً هنا تحديد الـــوقت الـــذي أدرك فيه الجميع أنَّ صـــورتهم عن الإســـلام والشـــرق طفوليةٌ تماماً هدفُها الإخافة والاستهزاء"[49].

المطلبُ الخامس

الـحُجَّاج المَسيحيُّون ودَورُهُم في رَسمِ صُورةِ المُسلمين

تحتلُ القدس مكانةً عظيمةً في قلوب أتبـاع الأديـان السـماوية الثلاثـة، والذي يعنينا هنا هو الحديث عن أهميّتها عند الكنيسة والمسـيحيين، فقد كـانوا يأتون لزيارتها من أقاصي الغـرب، بهـدف مسح الآثـام والـذنوب والتطُّهر من الخطايا والآثام، وهو ما يُسمّى بالحجّ عند المسيحيين. وتُسمّى القدس عندهم بالمدينة المقدَّسة لاعتقـــادهم أنّ المســـيح، عليه الســـلام، هبط إلى الأرض وتجسّد بشراً في مدينة بيت لحم القريبة منها، ثُمَّ رُفِـعَ إلى السـماء من جبل الزيتـون "فكيف لا تصـبحُ المدينـةُ مقدّسَـةً بعد أن شـهدت خلاص العـالم"[50] على حدّ مقولة "كيريلوس" أُسقُف أورشليم عام 349م.

كان المسيحيون يعتقـدون أنّ الأمـاكن المقدسّـة في القـدس يمكنُ أن تُعين المسـيحيين على الاتّصـال بـالقوة الإلهيـة، لأنها ــ كما يعتقـدون ــ "هي الأماكن التي لمَسَ اللهُ فيها عالمنا ومِن ثمّ فقد أصـبحت لها قوّتُها الروحيّـة"[51]. ومعـنى ذلك أنّها تمكّن المسـيحيين من الشـعور بوجـود الله عن طريق إزالة الحاجز المكاني، لا الزمـاني، بينهم وبين حيـاة المسـيح وأنّ المسـيحيين عنـدما يلمسـون الأشـياء الـتي لمسـها المسـيح مثل الصـليب والمقـبرة بل والأرض التي يقفون عليها نفسها فـإنّهم يسـتطيعون أن يتّصـلوا عـبر السـنين بالمسـيح الغـائب. وكـان كـيريلّوس يُحبُّ أن يقـول: "إنّ الآخـرين يسـمعون فحسـب, ولكننا نـرى ونلمس"[52]. فالحجـاج الـذين يقتفـون خطى المسـيح حرفياً، ويطأوون الأرض التي وطأها، يجدون أنَّ أحـداث حياته الـتي بَعُد العهد بها قد أصبحت حقيقةً حاضرةً وماثلةً أمـامهم "ويسـتدرك كـيريلّوس قـائلاً إنّ المسـيح لا يقتصر حضـوره على موضـعٍ بعينـه، فالمسـيحيون قـادرون على استشـعار هـذا الحضـور في أيّ مكـانٍ في العـالم، ولكنَّ زيـارة الأمـاكن المقدسة، تمكّنهم من الوقوف في مكانٍ ما يزال مفعماً بالحضور الإلهي"[53].

ويُستفاد من ذلك كلّه أنّ أبرز الـدوافع الـتي كـانت تجـذبُ المسـيحيين إلى القدس الرغبة في مشاهدة ولمس الأماكن الـتي كـان المسـيح يحضـرها بجسده "وأصبح الحجّاج يعـودون إلى ديـارهم حـاملين قطعـاً من الصـخور أو بعض التراب أو بعض زيت مصابيح الأماكن المقدسـة، بل إنَّ أحد الحجـاج بلغ به الحماس أن قضم قطعةً من الصليب الحقيقي عندما قَبَّلَهُ في يـوم الجمعة الحزينـة. كـان النـاس يريـدون أن يمتد تـأثير قداسة أورشـليم إلى أوطـانهم ويتوفر في بلد كُلٍّ منهم"[54].

كـانت كنيسة القيامة أبـرز المعـالم الـتي يزورها الحجـاج المسـيحيون، لاعتقـادهم أنّها تضـمُّ قـبر المسـيح. وقد اشـتعلت في القـرن الحـادي عشر الميلادي موجةٌ كبـيرةٌ من الحماسة والشـوق لأورشـليم والأراضي المقدّسـة، حيث راحت أعدادٌ أكبرُ من الحجّاج من أيِّ وقتٍ مضى تقـوم بالرحلة الشـاقة المحفوفة بالمخــاطر عــبر الأراضي المســلمة إلى الأراضي المقدسة. وفي

أوروبــا، أقبل المزيد من المســيحيين، وكما لم يُقبلــوا من قبــل، على تقــديم التبرعات والأعطيات إلى كنيسة القيامة، وأوقفوا الكنائس التي شيَّدُوها للقبر المقدَّس.

لم يحتمل الحجاج المسيحيون الغربيون الذين كانوا يــأتون إلى القــدس رؤية الأمـــاكن المقدّسة تحت (الاحتلال الإســـلامي). وكـــانوا يمتعضـــون من الإشراف الإسلامي على تلك الأماكن وكانوا عند عودتهم إلى أوروبا، يتحـدّثون عن المعاملة السّيئة التي كانوا يلقونها من المســلمين أثنـاء رحلة الحج ــ كما يزعمون ـ وينادون بتطهير القبر المقدّس القبر المزعوم للمسيح عليه السلام من دَنَس المسلمين الكفُّار ـ كما يصفونهم ـ وينادون بتقديم العــون لإخــوانهم المسيحيين الشرقيين الذين أصابهم الـذلُّ والهـوان في ظل الحكم الإسـلامي للشـــرق. وقد لاقت دعـــاواهم وشـــكاواهم هـــذه آذانـــاً صـــاغيةً من الكنيسة الكاثوليكية الـتي اتخـذت من (هـذه المـزاعم) مـادّةً لشـحن عواطف النـاس وتعبئتهم ضدَّ الخطر الإسلامي القادم من الشرق.

ويضاف إلى ذلك أنّ هذه الدّعاوى والشكاوى (الـتي لا زلنا نصـمِّمُ على وصفها بالمزعومة المختَلَقة) قد تزامنت مع الحملات الدعائية المُغرضة الــتي كانت تسـتهدفُ تشـويه صـورة الإسـلام لصـدِّ النـاس عن الـدخول فيـه، وهي الحملات الـــتي كـــان يـــبرمجُ لها وينفّـــذها القساوسة والرّهبـــان والعلمـــاء والمفكّرون الدينيّون والعلمانيون في أوروبـا. وقد لاقت هـذه الـدعاوى ــ كما قلنا ـ آذاناً صـاغيةً لـدى الكنيسة الكاثوليكيّة الـتي أخـذت تهـوّل هـذه الأخبـار وتضخّمها وتـدعو لتحرير قـبر المسـيح من (المغتصـبين والكفّـار) وكـانت تلك الدعوى سبباً مباشراً من أسباب الحروب الصليبية.

المطلبُ السادس

دَورُ الكَنيسةِ الإسبانيَّةِ في رَسم صُورةِ الإسلامِ والمُسلمين

عاشت الكنيسة الكاثوليكية في إسبانيا حربـاً مفتوحـةً طويلة الأمد في المجال العقدي ضدّ الإسلام والمسلمين. "ويمكن القول إنَّ أكثر أخبار وأفكار الأوروبـيين عن المسـلمين في القـرون الأولى للعصـور الوسـطى إسـبانيةُ المنشأ. صحيحٌ أنّ النظريات العامة، والمنظومات الشاملة، وتطورات الأفكـار الأولى، جرت كلها خارج إسـبانيا تقريبـاً، بيد أنَّ الـدوافع الأصـلية إسـبانيةٌ في غالبيتها العظمى؛ سواءٌ كانت تلك الدوافع العلمية الطبيعـة، أو المسـتندة إلى رؤى أنبيـاء الكتـاب المقـدس. لقد قاسى المسـيحيون الإسـبان تحت وطـأة الإسلام المسيطر بالأندلس، وربما كان هذا هو السـبب في أنهم كـانوا الأكـثر انفعالاً من بين الأوروببين بالمسألة الإسلامية"[55].

وفي تلك الفـترة الزمنية كـانت الحضـارة الإسـلامية في قمّة نموّها وازدهارها واجتذبت اللغة العربيّة (لغة الإسلام) الكثيرين من الشباب الإسـبان الذين انكبّوا على دراستها وتعلّمها وقراءة المؤلفات العربيّة والأشعار وأعمال المتكلّمين والفلاسـفة، لا لـيردّوا عليها وينقضـوها بل ليتقنـوا التعبـير والكتابة بالعربية "يا إلهي!! كل المسـيحيين الشـبّان الموهـوبين يقـرؤون ويدرسـون بإعجابٍ الكتب العربية. أمّا الثقافة المسـيحية فهم يحتقرونها ويقولـون إنّها لا تستحقُّ الاهتمام. لقد نسـوا لغتهم. فمقابل المسـيحي الواحد الـذي يسـتطيع كتابة رسـالةٍ لصـديقه باللاتينيـة؛ نجـدُ ألـفَ مسـيحيٍّ على الأقل يمكنهم أن يبتدعوا أشعاراً بالعربية أحسن من أشعار العرب أنفسهم"[56].

وقد أُطلق على هـؤلاء لفظ "المُسـتعرِبين"، ويبـدو أنّ معـنى التسـمية واضـحٌ تمامـاً. وقد شـغلَ هـؤلاء "المسـتعربون" الإسـبان بـال القـائمين على الكنيسة الكاثوليكية الإسـبانية طـويلاً، ممّا جعلها تكـافح على جبهـتين؛ الأولى جبهة مواجهة الوجـــود الإســـلامي على أرضـــها، والثانية جبهة ردِّ هـــولاء المسـتعربين إلى هـويّتهم ولغتهم الأصـلية. ولمّا رأت الكنيسـةُ الإسـبانية أنَّ محاولاتها لردّ هؤلاء إلى (صوابهم) كان بلا طائلٍ، فإنها عمدت إلى إثارة بعض

حركـات الاحتجـاج ليس ضـدّ الإسـلام مباشـرةً وإنما ضـدَّ رضا العامّة من المسيحيين بالحضـارة العربية الإسـلامية ونتاجهـا، وكـانت تُتـداول فتـاوى في الخفاء تحرِّض على محاربة المسلمين وشتم رسولهم محمدٍ ﷺ، كما سـبق عند الحـديث عن ظـاهرة شـهداء قُرطبة في المطلب الأول من هـذا البحث. وقد تزعّم هذا الاحتجاج الراهب "أوغيليوس" أكبر علماء المسيحية الإسبانية آنذاك وسانده في ذلك "باول ألفاروس". "وقد كان هذان الراهبان يشجّعان ظـاهرة شـهداء قرطبة ويحـاولان العمل على نشـرها في المـدن الإسـبانية كلّهـا، كما أنهما كانا يعتقـدان أنّ السـيطرة الإسـلامية على إسـبانيا إنما هي مقدمـةٌ ضروريةٌ لظهور المسيح الدجّال"[57]، وكانا يُفتيان بأنَّ شـهداء قرطبة إنما هم من جنود الله الذين كانوا يقـاتلون وبكل استبسـالٍ في الـدفاع عن عقيـدتهم. "كـانت حركة الشـهداء الـتي قادها الفـارو وأوغيليو تعـارضُ المُسـتعربين المسيحيين بنفس المرارة التي تُعارضُ بها المسلمين؛ إذ اتهمتهم بأنهم خوَنـةٌ لثقـافتهم. وقـام "أوغيليـو" بزيـارة إلى "بامبلونـا" في البلـدة المسـيحية المجـاورة، وعـاد يحمل كتبـاً غربيـة: نصوصـاً باللاتينية كتبَها آبـاءُ الكنيسـة، ومؤلفـاتٍ رومانيـةً كلاسـيكيةً. كـان يطمحُ في مقاومة اسـتعراب مواطنيه الإسبان، وإبداع نهضةٍ لاتينيةٍ تتوقّدُ حنيناً وشوقاً إلى الماضي الروماني لبلده، فذلك من سـبل إحبـاط تـأثير الثقافة الإسـلامية السـائدة، ولكنَّ الحركة خبت وتدهورت عندما أصدر القاضي حكمه بإعدام أوغيليو"[58].

المطلبُ السابع

عُقْدَةُ الأنبياءِ الكَذَبَةِ

بنت الكنيسةُ الكاثوليكيةُ ما أشـاعته من أقاويل وأكـاذيب حـول رسـول الله ﷺ على أسـاسٍ عقـديٍ تَمَثَّلَ في أنَّ محمـداً (ﷺ) إنما هو واحـدٌ من الأنبيـاء الكذبة الذين يأتون في نهاية الزمان. وكان المسيح قد حذّر من هـؤلاء الأنبيـاء الكذبة في الفصول الخامس والسادس والسابع من إنجيل مـتى وبالـذات في القسم الأخير في الموعظة على الجبل، وكان ممّا ورد في ذلك "احـترزوا من

الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثيـاب الحملان ولكنهم مِنْ داخـلٍ ذئـابٌ خاطفـةٌ. مِنْ ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسَكِ تيناً. هكـذا، كلُّ شجرةٍ جيّدةٍ تصنعُ أثماراً جيدةً. وأما الشجرة الرديّة فتصنع أثماراً رديةً. لا تقدر شجرةٌ جيدةٌ أن تصنع أثماراً رديةً ولا شجرةٌ رديةٌ أن تصنع أثماراً جيـدةً. كـلُّ شـجرةٍ لا تصـنع ثمـراً جيـداً تُقطع وتُلقى في النـار. فـإذاً من ثمـارهم تعرفونهم ... ليس كلُّ من يقول لي: يا ربُّ يا ربُّ، يدخل ملكـوت السـموات. بل الذي يفعل إرادة أبي الذي في السموات. كثـيرون سـيقولون لي في ذلك اليوم: يا ربُّ يا ربُّ، أليسَ بآسمك تنبأنا وبآسـمك أخرجنا شـياطينَ، وبآسـمك صنعنا قواتٍ كثيرةً؟ فحينئذٍ أُصرِّحُ لهم: إني لم أعـرفكم قـط. إذهبـوا عـني يا فاعلي الإثم"[59].

ولا يفهمُ من ذلك أن المسـيح، حسب نصـوص الكتـاب المقـدس، اتَّهَم كـلَّ الأنبيـاء بـأنهم كَذَبـةٌ ولكنّه أكَّدَ على أن هنـاك أنبيـاء صـادقين وآخــرين مُــزيّفين، ومن هـؤلاء المــزيفين الكَذَبة جـاء تحــذيره (إحــترزوا من الأنبيــاء الكذبة). وقد ذكر الكتاب المقـدّس أوصـافاً متعـددةً يعـرفُ النـاس من خلالها هؤلاء الأنبياء الكَذَبَة، ومن هذه الأوصاف أنّهم يأتون الناس بشكلٍ غير شكلهم الحقيقي، وهذا واضحٌ في قول المسيح في الآية (15) من الفصل السـابع من إنجيل مــتى (يــأتونكم بثيــاب الحملان) تلك كنايــةٌ عن اســتعمالهم اللّطف والنّعومة واللين في أفعــالهم وأقــوالهم، ولكنهم في ذاتهم وجــوهرهم خلافُ ذلك؛ فهم كما وصفهم المسيح (ولكنهم من داخلٍ ذئابٌ خاطفةٌ) وذلك للدلالة على مهارتهم الفائقة في خطف نفوس النـاس وشـدّهم وجـذبهم إليهم. ومن الأوصافُ التي يُعرفُ بها الأنبياء الكذبـةُ كـذلك النتـائج السِّـيئة لأعمـالهم على الدوام، فقد وصفهم المسيح في الآيـات (16 – 20) من الفصل السـابع في إنجيل متّى بقوله (من ثمارهم تعرفـونهم) ثم سـأَلَ (هل يجتنـون من الشـوك عنبــاً أو من الحَسَــك تينــاً؟) وكلامه واضــحٌ في دلالته على أعمــال هــؤلاء؛ فالشوك لا يثمرُ إلاّ شوكاً والحسـكُ لا يُنتجُ إلاّ حَسَـكاً. ثّم شـبّه المسـيحُ نتـاج أعمالهم الرديئة بالثمار الرديئة التي لا تطرحها إلاّ الشجرةُ الرديئة حين قـال:

(كلُّ شجرةٍ جيّدةٍ تصنعُ أثماراً جيّدةً؛ أمّا الشجرةُ الرديّةُ فتصنعُ أثمـاراً رديّـةً). وحتى لا نطيل في ذكر تفصيلات الحـديث عن الأنبيـاء الكذبة[60] فـإنّ الكنيسة قد ذكرتْ أهمَّ وصفٍ يُعرفُ من خلاله هـؤلاء الأنبيـاء الكَذَبـة، ألا وهو إنكـارهم لعقيـدة الثـالوث المقـدّس عن المسـيحيين (الآب والإبن والـروح القـدس) وإنكارهم للصليب ولقيامة ولاهوت المسيح وعمل الفداء ويُضافُ إلى ما سبق من أوصـاف الأنبيـاء الكذبة "ادّعـاؤهم لمعرفة علم الغيب وظهـور العديد من الآيات والعجائب على أيديهم، إضافةً لكونهم يقدِّمون تفسيراتٍ جديدةً مغايرةً تمامـاً للمعـروف والمـألوف من تفسـير الكتـاب المقـدّس"[61]. لقد أسـندت الكنيســةُ في تاريخها وصف النــبي الكــاذب للعديد من الرجــال، وذلك حسب تفسيراتها التي كانت على الـدوام تتغيّر بتغـير الزمـان والأمـاكن والأشـخاص، لكنّ الشـخص الوحيد الـذي اتّهمتـهُ الكنيسـةُ بهـذا الوصف منذ ما يزيـدُ على تسعمائة سنةٍ ولا زال هذا الوصفُ ملازمـاً له كلَّما ذُكِر هو الرسـولُ محمـدٌ ﷺ، الذي لا زالت الكنيسةُ الكاثوليكية حتى اليوم تتّخذُ من الطعن في صـحّة نبوّته مدخلاً للطعن في الإسلام كلِّه، مُعلنةً دون أدنى حياءٍ أو خجــلٍ، كراهيتها لهـذا الرجل، عليه الصلاة والسلام "ورغم أن بعض الحضـارات حـاربت المسـلمين، إلاّ أنّ معظم تلك الحضارات لم تحتفظ بتُراثٍ من الكراهية تجاه نبي الإسلام مثلما احتفظت به دويلاتُ أوروبا وكنائســها. إنّ مِن المُلفت للنظر أنَّ العــداء المسيحيّ للإسلام وللنبي ﷺ خارج أوروبا الغربية لم يتحول إلى كراهيةٍ تاريخيةٍ يتم الاحتفــاء بها وتأكيـــدها في المناســبات الدينية وعلى حوائط الكنـــائس والأديرة كما حدث في أوروبا الغربية"[62].

الهوامش

1. العصور الوسطى: يشار إلى هذه الفترة المبكرة بأنها العصور المظلمة، كانت القرون الأولى من العصور الوسطى، خاصة من القرن الخامس إلى أواخر القرن العاشر الميلاديين أقرب إلى أن تكون مظلمة، حيث أصيبت حضارة غربي أوروبا بالانحطاط، ولم يتبق من حضارة الرومان القدامى سوى ما بقي في قلة قليلة من مدارس الأديرة والكاتدرائيات والبلاط والقصور الملكية. أما العلوم التي نقلت عن اليونانيين فقد اندثرت تقريباً وكان الذين تلقوا علماً فئة قليلة من الناس، كما ضاع الكثير من المهارات الفنية والتقنية القديمة، وأمسى العلماء في جهلهم، يتقبلون الحكايات الشعبية والشائعات على أنها حقيقة.
2. صكوك الغفران: سَنَداتٌ وصكوك كانت تصدرُ عن الكنيسة الكاثوليكية وتُباع لِعَامّةِ النَاس، حيث تغفُر هذه الصكوك خطايا الإنسان الذي يشتريها. بل إنّ بعض أنواع هذه الصكوك كانت تضمنُ لأصحابها الجنّة!! وقد اشتهر الراهب يوحنا تيتزل بتوزيع هذه الصكوك وذلك بأمرٍ مباشرٍ من البابا ليو العاشر.
3. محاكم التفتيش: محاكم كاثوليكية كانت تُناط بها مهمّة ملاحقة مخالفي الكنيسة ومعاقبتهم. وتُعتبرُ هذه المحاكم سلطةً قضائيّةً كنَسيّةً إستثنائية وضعها البابا غريغوري التاسع لقمع كل من يخالفون معتقدات وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية.
4. الهرطقة: كلمة إغريقية الأصل تعني الخروج على مجموعة الأفكار الدينيّة التي يؤمن بها السوادُ الأعظم من الناس في مجتمعٍ ما وزمانٍ ما. وأصبحت فيما بعد تُطلقُ على تفكير الإنسان لنفسهً وتساؤله مُتشكّكاً في سلطة الكنيسة.
5. الحرمان نوع من العقوبة أخذه المسيحيون عن قدماء الوثنيين، وفي العهد الذي كان للبابا الحق في تتويج الأباطرة، كان الحرمان يسلبهم تيجانهم وعروشهم، وقد حرم البابا "بيوس الخامس" ملكة الإنجليز "اليصَّابات" عام 1570م وأباح لرعاياها عصيانها، وحرم البابا "بيوس التاسع" في النصف الأخير من القرن الغابر ملك إيطاليا "فيكتور عمانويل" لاستيلائه على أملاك الكرسي الرسولي. أمَّا حرمان غير الملوك والأباطرة فكان على نوعين؛ حرمان المحروم من بعض المزايا الكنسيّة ـ متى كان جرمه بسيطاً، فإن كان الجرم كبيراً، طُرِدَ المحروم من عضوية الكنيسة ـ إن كان عضواً بها، وحُرم من معاشرة المسيحيين، ودُفن على غير الشعائر المسيحية.
6. الطويل، توفيق، قصة الاضطهاد الديني في الإسلام والمسيحية ص 81، ط 1، 1947، دار الفكر العربي.
7. حسونة محمد، محمد رفعت، معالم تاريخ العصور الوسطى، ص 137، ط 1، 1925، المطبعة الرحمانية، القاهرة.

8. ديورانت، ول، قصّة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، ص 352، الكتاب الخامس، ط1،/ 1965، منشورات الإدارة الثقافة بجامعة الدول العربية، القاهرة.
(*) سبق بيانه
9. اشْتُهَرِ ذلك باسم "الفكر الرؤيوي" أو "التّبوئي".
10. سوذرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيّد، ص 51، ط1، 1984، منشورات معهد الإنماء العربي، لبنان.
11. أحد كتب العهد القديم، ونرى فيه تجارب ورؤى مر بها دانيال في الأسر البابلي، حيث نجا من وكر الأسد. يذكر السفر أن دانيال بعدما تمكن من تفسير حلم الملك نبوخذ نصر في الوقت الذي عجز فيه المجوس والسحرة والمنجمين عن ذلك رفعه الملك ليكون كبيرهم (دانيال 5: 11) ويعتقد أنه كتب في القرن الثاني قبل ميلاد المسيح عندما عانى اليهود من الاضطهاد، وليس في بابل. ومما يتميز به هذا السفر أنه خليط من اللغتين العبرية والآرامية الغربية، وفيه أيضاً أكثر من أثنى عشر كلمة مشتقة من الفارسية.
12. سوذرن [م. س]، ص 51.
13. سوذرن [م. س]، ص 52.
14. الفرا، محمد علي، الإسلام والغرب مواجهةٌ أم حوار، ص 50، ط1، 2002، دار مجدلاوي للنشر، الأردن.
15. المرجع السابق، ص 50.
16. انظر سفر دانيال، الإصحاح السابع 15 – 25.
17. الفرّا [م. س]، ص 53.
18. أشهر علماء المسيحيّة في إسبانيا في ذلك الوقت.
19. أرمسترونج، كارين، سيرة النبي محمدٍ، ص 32، 33، ط1، 1989، دار الكتاب العربي، القاهرة، باختصار وتصرف.
20. آرمسترونج، كارين [م. س] ص 33، بتصرف.
21. سوذرن، [م. س]، ص 68.
22. المرجع السابق، ص 68.
23. جورافسكي، إليكسي، الإسلام والمسيحيّة من التنافس والتصادم إلى الحوار، ترجمة خلف محمد الجراد، ص 70، ط1، 2005، دار الفكر، بيروت.
(*) سبق بيانه
24. سوذرن [م. س] ص 12.
25. هاغمان، لودفيغ، المسيحيّة ضدّ الإسلام حوار انتهى إلى الاخفاق، ترجمة محمد جديد، ص 46 فما فوق بتصرف، ط2، 2005، قدمس للنشر، سوريا.
26. كلمة سريانية تعني المتبحِّر في العلم
27. هاغمان، [م. س]، ص 46، 47، بتصرف.

28. المرُجع السابق نفسه، ص 48.
29. هاغمان، [م. س]، ص 29.
30. الفرّا [م. س] ص 48.
31. المرجع السابق، ص 18، بتصرُّف.
32. سوذرن، [م. س] ص 43، 44، بتصرّف
33. المرجع السابق، ص 38.
34. أغنية عن رولان أو أغنية رولان (chanson de Rolland) قصيدة غنائية فرنسية ظهرت في القرون الوسطى، طُوّرت وعُدلت مراتٍ كثيرة فكان شكلها الأكثر اكتمالاً من تحرير اكسفورد حوالي 1170م. موضوعاتها التاريخية تقوم على سرد الحكايات البطولية حول حروب كارل العظيم (أو الكبير)، بطل هذه الملحمة الغنائية، الذي يجسد الشجاعة والوطنية.
35. الفرا، [م. س]، ص 29.
36. أبوللو أو أبولون (Apollon). يُعدُ عند الإغريق إلهاً لكل ما هو خير وجميل كحفظ واحترام القانون وإسعاد الناس، والتخفيف عن ذوي الضمائر المعذبة. وكان إلهاً للرماة وللطب، ويستغاث به في كثير من المدن لاسيما في دلفي حيث كان وحيه يكشف الإرادة الإلهية للكهنة الذين يؤدونها للناس. وكان أيضاً إله الموسيقا والشعر ورئيس ربات الشعر.
37. تروفونيوس (Trophonios) هو ابن الإله (أبولون) تروي الأسطوة أنه اشترك مع زوج أمه آغاميد في بناء معبد أبوللو في دلفي وسواه، لكن زوج الأم غدر به وقتله فابتعلته الأرض، ثم أصبح مؤلهاً، واختص بمهبط ريحٍ في بيوتيا حيث تقيم روحه في نفق (أو كهف) يدخله المستشيرون فيقدمون قرابينهم ثم ينامون على أمل أن يتلقوا وحي هذا الإله الأرضي.
38. الفرا [م. س]، ص 30 فما فوق بتصرف.
39. جورافسكي، [م. س] ص 75.
40. عمارة، محمد. الفاتيكان والإسلام، أهي حماقة أم عداء له تاريخ، ص 28، 29، بتصرف ط1، 2007، مكتبة الشروق الدولية، مصر.
41. عمارة، [م. س] نقلاً عن مكسيم رودنسون [الصورة العربية والدراسات العربية الإسلامية] بحث منشور بكتاب [تراث الإسلام] ـ بإشراف "شاخت" و"بوزورت" القسم الأول ص 27، 28. ترجمة: د. محمد زهير السمهوري. مراجعة: د. شاكر مصطفى. طبعة الكويت 1978م.
42. المرجع السابق نقلاً عن: [الإسلام في عالم البحر المتوسط] ص 104 ـ 105.
43. المرجع السابق نقلاً عن: [صورة الإسلام في التراث الغربي] ص 23، 24.
44. هونكة، زيغريد، العقيدة والمعرفة، ص 161، 162، بتصرف، ترجمة عمر لطفي العالم، ط1، دمشق 1987.
45. المرجع السابق ، ص 162، بتصرف.
46. سوذرن، [م. س]، ص 66.
47. سوذرن [م. س] ص 67 بتصرف.

48. المرجع السابق، ص 64.
49. المرجع السابق، ص 65.
50. آرمسترونج، كارين، القدس مدينةٌ واحدةٌ وعقائدُ ثلاثةٌ، ص 319، ط1، 1998، دار الكتاب العربي، القاهرة.
51. المرجع السابق، ص 320.
52. المرجع السابق، ص 320.
53. المرجع السابق، ص 320.
54. المرجع السابق، ص 338.
55. سوذرن [م. س]، ص 55 بتصرّف.
56. المرجع السابق، ص 57، 58.
57. المرجع السابق، ص 63.
58. آرمسترونج،كارين، سيرة النبي محمد [م. س]، ص 35.
59. انجيل متّى: الإصحاح السابع 15 – 20.
60. للتوسع في أوصافهم انظر موقع كلمة الحياة www.kalimatalhayat.com / الردّ على البدع وكشف القناع (احترزوا من الأنبياء الكذبة) وانظر تفسير القديس يوحنا الذهبي الفم لموعظة يسوع المسيح على الجبل (كيف نميّز الأنبياء الكذبة) على موقع www.orthodoxonline.org .
61. البابا شنودة الثالث، مقالة (إحترزوا من الأنبياء الكذبة)، المنشورة على موقعه الرسمي www.copticpope.org.
62. خفاجي، باسم. لماذا يكرهونه؟ الأصول الفكرية لموقف الغرب من نبيّ الإسلام، ص 15، ط1، 2006، من منشورات مجلة البيان، الرياض.